الإسلام فى أوروبا

تأليف: فرنشيسكو غابرييلى

تعليق: د. عز الدين إسماعيل أحمد

obeikandl.com

obeikandl.com

يعدّ هذا الكتاب واحداً من أمهات الكتب الأجنبية التى أرّخت للإسلام خارج العالم الإسلامى بقلم واحد من المستشرقين والمتخصصين فى العلوم العربية، وهو كتاب يعد بالمعنى المكتبى لبنة أساسية فى صرح المكتبة العربية.

ويتألف هذا المجلد الضخم من ٢٧٨ صفحة من القطع الكبير، ويشتمل على ٥٤٠ صورة، أشرف على إخراجه عالمان مستشرقان لهما باع طويل فى هذا المجال.

(الأول)هو الإيطالى (فرانشسكو غابرييلى) صاحب الفكرة، والذى تعهدها بمساعدة نفر من الباحثين الإيطاليين حتى خرجت إلى النور بالطبعة الإيطالية.

وفرنشيسكو غابرييلى أستاذ سابق فى جامعة السربون، وهو متخصص كرّس حياته لدراسة التاريخ الإسلامى فى العصور الوسطى والحديثة. ومن مؤلفاته نذكر الكتب التالية:

١ ـ محمد. ٢ ـ العرب.

٣ ـ محمد وغزوات العرب الكبرى. ٤ ـ الحروب الصليبية.

٥ ـ الشعر الدينى فى صدر الإسلام. ٦ ـ الأدب العربى الجاهلى.

أما (الثانى) المشرف على الطبعة الفرنسية لهذا الكتاب، فهو المستشرق الفرنسى جان بول رو أستاذ الفن الإسلامى بمدرسة اللوفر، والباحث بالمركز القومى للبحوث العلمية «S.N.R.S» وقد أصدر العديد من البحوث والكتب حول الإسلام وفنونه، تتعلق بوجه خاص بالأتراك، كان آخ ها كتابًا بعنوان (ديانه الأتراك والمغول) صدر فى عام ١٩٨٣م.

* * *

لقد أصبحت الكتابة عن الإسلام والعرب والمسلمين سمة من سمات العصر، ذلك أن الصحوة التى يعيشها العالم الإسلامى اليوم ما يصاحب ذلك من مشكلات وأزمات وصراعات، جعلته فى مقدمة الاهتمامات التى تشغل العالم أجمع، ومن ثم

خرجت إلى النور العديد من البحوث والكتب التى تتناول بالدراسة هذا العالم الإسلامى من حيث الطبيعة والأرض والتاريخ والدين والثقافة والفكر والاجتماع.

وإذا كان هذا المجلد يندرج فى قائمة هذا الإنتاج العلمى الضخم، فإنه كذلك يسد بعض ثغراته؛ لأننا قد نجد بعض مادته فى ثنايا غيره من المؤلفات، غير أن ما يميز هذا المؤلف أنه يلم بأطراف موضوع لم يسبق معالجته بشكل متكامل بالكلمة والصورة على النحو الذى تحقق لهذا المجلد.

لقد أراد مؤلفا هذا الكتاب تحليل العلاقات الوثيقة القديمة والحديثة التى تربط بين العالم الإسلامى وأوروبا طوال ألف وثلثمائة عام من تاريخ البشرية، تلك الحقبة التى تمتد بين تاريخين هامين، الأول عام ٦٢٢م الذى شهد مولد الإسلام، والثانى عام ١٩٢٢م الذى شهد الثورة التركية بزعامة مصطفى كمال أتاتورك، تلك الثورة التى كانت بداية مرحلة جديدة من التاريخ، وهى المرحلة التى نعيشها الآن.

والعلاقات الوثيقة التى يحاول هذا الكتاب دراستها لا تقتصر على الحربية منها، والتى مازالنا نذكرها حتى الآن، وأهمها معركة (بلاط الشهداء) بواتيية والحروب الصليبية، وسقوط القسطنطينية، وحصار البندقية، ولكن الكتاب يهتم أيضًا بالعلاقات السلمية القائمة على حسن الجوار والتعايش السلمى والأخذ والعطاء. فهناك وجود إسلامى فى أوروبا الشرقية وجنوب شرق أوروبا، بالإضافة إلى المهاجرين من المسلمين فى أوروبا، والأوروبيين الذين أعتنقوا الإسلام حديثًا. ولا ينبغى أن ينسينا ذلك حقيقة مهمة، وهى أنه إذا كان الإسلام لم يتمكن من تحقيق هدفه بضم أوروبا إلى حظيرته، فقد ظل دائمًا مصدر تهديد لهذه القارة. وأقام فيها ردحًا من الدهر وغرس فيها غرسه الذى أثمر وأزهر الكثير من طيب ثماره ويانع أزهاره.

وإذا كانت المحاولات المتعصبة قد أزالت أكثر هذه الآثار؛ فلم يزل هناك الكثير منها تحت أسماء عديدة، منها قصر الحمراء، وقصور غرناطة وأشبيلية والسالمية. لقد

كانت هناك أوروبا المسلمة فى يوم من الأيام استمرت قرابة ثمانية قرون فوق أرض أسبانيا وقرابة خمسة قرون فى بلاد الكرم وأكرانيا وضفاف الفولغا، وحوالى ثلاثة قرون فى جزيرة صقلية. ومن يدرى؟ فى بعض أطراف من فرنسا المسلمة تراوح عمر الإسلام بين عشرات السنين والقرن الكامل. ولقد ظل الروم يخضعون للمسلمين قرنين كاملين (١٢٢٣ ـ ١٤٢٣م) وكذلك خضع اليونانيون والرومانيون والبلقان أربعة أو خمسة قرون، كما ظلت المجر خاضعة للمسلمين مائة وخمسين عامًا.

كل ذلك له أهميته ووزنه. ولكن الذى يهمنا أكثر ويزن أكثر فى تاريخ الحضارة هو ما يمكن أن نطلق عليه : أسلمة (أوروبا).

على أثر سيادة العلوم والثقافة والفلسفة الإسلامية فى ربوع أوروبا، يكفى أن نذكر اسم ابن رشد الذى سيطر على العقول الأوروبية طوال العصور الوسطى، والأصداء الإسلامية فى كتاب (دانتى) الشهير (الكوميديا الآلهية) وفى أعمال (غوته) وإنتاج الرومانسيين الفرنسيين. الواقع أنه مهما بلغ التصدى للتأثير الإسلامى من عنف وتعصب، ومهما بلغت الرغبة فى التخلص منه من الحدة والقوة، فلايمكن بأية حال أن ينكر هذا التأثير، أن أوروبا ما كانت لتكون ما هى عليه الآن لو لم تعرف الإسلام وتتأثر به. لقد أصبح الإسلام جزءاً لا يتجزأ من تراثها وحضارتها. وإذا كنا فى هذا الكتاب نبحث فى الإسلام والمسلمين، فنحن فى الواقع إنما نبحث إلى حد ما فى أنفسنا وفى أصولنا.

ذلك ما يعترف به (جان بول رو) أحد المشرفين على هذا المجلد. والكتاب بعد ذلك لا يزعم الإلمام بكل المباحث التى تدخل فى إطار هذا الموضوع الواسع، وإنما هو عبارة عن مدخل إلى هذا العالم الفسيح. ومن يدرى لعل القارىء الأوروبى بعد هذه الإلمامة بالإسلام والمسلمين أن يزداد فهمه لتاريخ بعض المدن والمقاطعات الأوروبية، ويعمق إدراكه لأعمال بعض الكتاب والفنانين الأوروبيين، مثل: (دانتى) و(دى

لاكروا) ويعرف بعض الحقائق التى كان يجهلها عن الملاحة وعلم البحار والرياضيات والفلك والطب والنحت والتصوير والأدب أيضًا.

فن التصوير فى إيطاليا:

تعتبر حكاية علاء الدين والمصباح السحرى من أكثر الغرائب المتعلقة بالعالم الإسلامى شيوعًا بين الأوروبيين، ويستغل الكاتب هذه الحكاية والرمز الذى تشير إليه؛ ليعقد مقارنة بين عملية حك المصباح التى يظهر على آثارها خادمه الجنى، وبين حال الأوروبيين، وهم يتأملون بعض الأدوات التى يستخدمونها فى حياتهم اليومية وأصبحت مألوفة لديهم؛ لأنها صارت جزءاً من ثقافتهم وحضارتهم، ولكنهم حينما يمعنون النظر فى هذه الأشياء تتجلى لهم تأثيرات إسلامية لم تكن تخطر لهم على بال. إن هذه التأثيرات تبدو غريبة لعين الناظر فى هذه الأشياء؛ لأن ماتتضمنه من عناصر إسلامية وعربية قد اختلط بها وأندمج فيها وأصبحت جميعًا جزءاً لا يتجزأ من حياة الأوروبيين اليومية، بحيث لم يعد أحد يفكر فى أصولها الشرقية. وفى فترة متأخرة من التاريخ بدأ الأوروبيون يفكرون فى دراسة وتحليل العناصر التى يتكون منها تراثهم الثقافى والحضارى، فكشف لهم على سبيل المثال فى عام ١٨٤٥ م وجود بعض الحروف العربية ضمن تكوين بعض اللوحات الفنية التى ترجع إلى العصور الوسطى، حتى أن بعض المتعصبين منهم لم يتردد فى توجيه الإهانات والسباب إلى مكتشف هذه العناصر (الدخيلة)، ولعل أشهر حالة لهذا الأطار تتجلى فيما درج عليهم المصور الإيطالى الشهير (جوتو GIOTTO) (١٢٦٦ ـ ١٣٣٧م) من استخدام الحروف الكوفية فى تزيين الملابس التى يرتديها بعض الشخصيات الشهيرة فى الديانة النصرانية فى بعض لوحاته المشهورة، وذلك كنوع من التجديد الفنى دون اهتمام بدقة النقل والتقليد. وقد سار على هذا النهج عدد غير قليل من مصورى العصور الوسطى فى إيطاليا حتى القرن الخامس عشر الميلادى، ومن أشهرهم (سيمون مرتينى Simon Martini)و(فرانجيليكو Fraangelico) و (دى فيليبيلوليبى Pilippinolipi) و(جينتيلى دافاريانو Gentile Dafabtiano).

ومن ناحية أخرى، لم يقتصر التأثير الإسلامى على عناصر إسلامية يسخرها الفنان الغربى ويدخل عليها بعض التحويل والتحوير، وإنما يتعدى ذلك إبداعات أصلية لفنانين مسلمين، تتمثل فى تحف من أعمال الزجاج والبرنز والنسيج والعاج، درج استعمالها فى ثنايا الفنون النصرانية المقدسة، من ذلك ما تحتويه كنوز مخلفات كنيسة لاسكالا سانتا فى روما من عاديات إسلامية، وبوجه خاص، خزانة نقش عليها اسم الجلالة بالعربية متكرراً عدة مرات، وهو أمر أذهل الجميع؛ وبالذات لأن هذه المخلفات فى قدس الأقداس الذى كتبت على واجهته عبارة باللغة اللاتينية تحذر من الاقتراب من المكان؛ لأن المكان يعتبر أقدس بقعه فى الديانة النصرانية. وفى بعض الأحيان يذهب بعض العامة من النصارى إلى الاعتقاد فى بعض العاديات الإسلامية؛ لاعتبارها مخلفات نصرانية شرقية، من ذلك قطعة من النسيج من العصر الفاطمى محفوظة فى كنيسة إبط، وهى تحمل اسم الخليفة المستعلى والشهادة الإسلامية، صار الاعتقاد بأنها الخمار المقدس للقديسة «آنا»، ويضم متحف اللوفر بباريس أشياء من هذا القبيل.

وهناك عنصر إسلامى آخر ترك بصمات واضحة فى فن التصوير المقدس وغيره، ألا وهو السجاد الذى استحوذ بألوانه ونقوشه على إعجاب الأوروبيين منذ العصور الوسطى، وتم جلبه بكميات كبيرة لاستعماله فوق الأرض وعلى الجدران وفوق المناضد. وقد جرت العادة حتى اليوم على إطلاق أسماء عربية إسلامية على بعض أنواع من السجاد من صنع بعض مشاهير المصورين الإيطاليين، منهم لوتوLotto وبيلينى Bellini.

بعد ذلك، وخلال الاحتكاكات التى جاءت على أثر بعض الحروب ومنها حرب الكرم ، انطلق استعمال الألوان الصارخة فى الأزياء النسائية عند الأوروبيات ، كما أن القرن الخامس عشر شهد تأثير النعال وأغطية الرأس التى أخذها الأوربيون عن المسلمين . ولعل استعمال الأوربيين للقبعات الضخمة التى تطالعنا فى التصوير فى القرن الخامس عشر مأخوذ مع نوع من التحوير عن الشرق الإسلامى. ومن غريب

التأثيرات الإسلامية فى مجال التصوير ما يحكى عن أحد الباباوات الذى كان بطل الوحدة التى لم تتحقق لتعارضها مع بعض المصالح الخاصة .. الذى يهمنا فى هذا الصدد هو أن مدينة فلورنسا الإيطالية قامت ، رغم ذلك ، بتنظيم حفل تكريماً لهذا الداعية إلى الحرب المقدسة ضد الإسلام . والغريب أن الحفل المذكور كان حافلاً بالعناصر الإسلامية التى كانت بادية فى أركانه وفى بعض فقراته . ومن أمثلة ذلك تصميم لحملة لصيد الأسود فى ميدان " السينوريا" وقد دلت بعض الدراسات على أن " أحد سكان فلورنسا هو الذى أدخل هذه الفقرة فى الحفل وكان قد سبق له أن شاهدها فى السودان وفى سوريا "

وإذا كان من المستغرب أن نلاحظ التأثير الإسلامى فى الوقت الذى يتم فيه مكافحته والقضاء عليه إلا أنه على الرغم من الاختلافات السياسية والدينية فقد كان هناك تقدير وتذوق للعناصر الإسلامية بالنظر إلى طرافتها ومهارة الفنانين المسلمين التى شملت مجالات مختلفة . ومن ذلك أن كثيراً من أعمال الزخرفة والزينة فى أوروبا تم تنفيذها على الطريقة الشرقية العربية . يشهد بذلك ما يطالعنا فى بعض التصميمات التى قام بتنفيذها كل من: الإيطالى (ليوناردو دافنشى L.D.A vinic) و (الألمانى دورير Dwrer).

وعلى مستوى الفلسفة الدينية، فقد ذهب عبد الرحمن بدوى إلى أن الرهان الشهير الذى دعا إليه الفيلسوف الفرنسى النصرانى (باسكال Pascal) فى القرن السابع عشر الميلادى له نظير يتمثل فى الميزان العادل عند الفيلسوف المسلم (الغزالى) فى القرن الثانى عشر الميلادى.

وعلى الصعيد الأدبى، نعتبر مسرحية «باطلان» التى تعود إلى القرن الخامس عشر الميلادى مقتبسة من إحدى حكايات الجاحظ فى كتابه الشهير (الحيوان) الذى يعود إلى القرن التاسع الميلادى .

ولاشك أننا هنا لا نسوق إلا بعض الأمثلة القليلة؛ لأننا لا نستطيع فى مثل

هذا المجال الواسع أن نحصى ما تركه التراث الإسلامى من بصمات فى الفنون الأوروبية المختلفة . كذلك فقد آثرنا فى هذا الكتاب أن نشير إلى بعض التأثيرات التى قد يصعب تصدقيها أو الإقرار بها لقلة شيوعها.

أما فى مجال العمارة فهناك تأثيرات معروفة وشائعة ومن السهل إثباتها وتحقيقها. إن مثل هذه التأثيرات تتجلى واضحة لكل من شاهد العمارة الإيطالية الدينية والمدنية فى العصور الوسطى. بدءاً من المنشآت النورماندية الضخمة حتى الكنائس الصغيرة. إن الإلمام بحجم التأثير الإسلامى فى مجال العمارة الأوروبية فى العصور الوسطى عملية صعبة وشائكة. كما أن الغموض ما يزال يكتنف الكثير من جوانبها بحيث أن دراستها دراسة شاملة وبشكل واضح وحاسم يعتبر ضرباً من التهور والتسرع.

العرب والأتراك فى الأدب الأوروبى:

تزداد الهوة إتساعاً بين العالمين الإسلامى والأوروبى النصرانى كلما توغلنا فى التاريخ والعكس صحيح. ومع ذلك فإذا كانت الحروب التى اندلعت بينهما فى العصور الوسطى شهدت نوعاً من المواجهة الصريحة العنيفة إلا أنها لم تصور العدو باعتباره تجسيداً للشر. إن الصور التى تمثل ملحمة (رولاندو)(٣) على زجاج كاتدرائية (شارتر) تصور الفارس المسلم والفارس النصرانى المتلاحمين بالحراب على درجة واحدة من الشجاعة والإقدام، بل إن (البطل العظيم صلاح الدين) كما درج على وصفه الكاتب الإيطالى الأشهر (بوكاتشو Boccace) قد بلغ فى تقدير الأوروبيين ما بلغه الملك فردريك الثانى من المجد والشهرة، الأمر الذى يشير إلى أن العدو المسلم تمكن من أن يصبح رمزاً لأسمى الصفات وأنبل الخصال. وقد استمرت هذه الصور وانعكست فى كثير من إنتاج شعراء الملاحم فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، من أمثال (بولاردو Bolardo) و (أريوست Arioste) و(تاس Tasse).

وقد تغيرت هذه النظرة فى الأدب حينما انتقلت زعامة العالم الإسلامى إلى أيدى الأتراك، وبنوع خاص بعد الهزيمة الكبرى التى منيت بها جيوش النصارى فى معركة (نيكوباليس) عام ١٣٩٦م. فقد جعلت أوروبا تنظر إلى الخطر الإسلامى نظرة جادة. وفى البداية كان من الصعب على الأوروبيين التسليم بأن الجيوش الصليبية الجرارة التى قطعت على نفسها العهد بالدفاع عن الصليب وحماية معاقل النصرانية يمكن أن تمنى بمثل ما منيت به من هزيمة نكراء على أيدى المسلمين، حتى لقد بلغ الأمر أنهم ألقوا القبض على من أعلنوا أخبار الهزيمة، وزجوا بهم فى السجون باعتبارهم مروجى إشاعات مغرضه ودعاة هزيمة. غير أن سقوط القسطنطينية قطع الشك باليقين، وكشف عن قوة المسلمين الحقيقية، الذين أصبحوا من فورهم يمثلون جانب (الأشرار)، بل يجسدون الشر نفسه فى نظر الأوروبيين. وكثرت المناقشات حول الإسلام والمسلمين باعتبارهم جنود المسيخ الدجال، غير أن ذلك كله لم يمنع مفكراً مثل المصلح الدينى (مارتن لوثر) بالرغم من نظرته السيئة إلى الإسلام، من أن يمتدح فيه بعض الجوانب بمقارنتها بالمظالم التى كان يرتكبها البابا وأعوانه. ومن ناحية أخرى، فقد تبارى النصارى الكاثوليك من ناحية والبروتستانت من ناحية أخرى، خلال معاركهم، فى مدح الإسلام ورد الاعتبار إليه، وبخاصة على الصعيد الأخلاقى والثقافى، وذلك فى غمار قيام كل مذهب بإبراز عيوب المذهب الأخر.

ومن هذا التحول فى النظرة إلى الإسلام، نشهد تحولا فى صورة المسلم عند الأوروبيين، لقد أصبح العالم الإسلامى فى عصر النهضة مصدر رعب وفزع وتجسيداً للقسوة والوحشية. ومع ذلك، فبجانب هذه القسوة نشأت بعض المفاهيم الأخرى مع الأيام. فهذا (جانباتيستا جيرالدى) فى القرن السادس عشر يصور السلطان سليم الثانى عنيفًا قاسيًا، ولكنه ينسب عنفه وقسوته إلى غيرته العاطفية. ولعل الأبيات التالية التى ترددت خلال حفل راقص فى بلاط الملك لويس الثالث عشر توضح هذا التحول:

هذا التركى الذى تشاهدونه أمامكم مجنون، ولكن ليس إلى الدرجة التى تجعلنا نبغضه، إنه تاج على رؤوس الغيورين.

فبعد أن كان التركى البطل الباسل الهمام والمحارب الذي لا يشق له غبار مبعث حقد وكراهية، أصبح عاشقًا تحركه العواطف ويحظى بكل تقدير وتعاطف. وتغيرت صورة الأتراك فى البليهات الراقصة مع أواخر القرن الماضى، بعد توطد العلاقات بين النصارى والمسلمين فى أوروبا الشرقية. فلقد ظهرت صورة التركى (العاشق) والمغربى الشهم المتيم.

ومن أشهر الأمثلة على ذلك شخصية (عطيل) فى مسرحية شكسبير، وفى تلك الاثناء كانت الأحداث المعاصرة مصدراً خصبًا لأعمال درامية كوميدية وتراجيدية، استوحاها الكاتب من تاريخ الدولة العثمانية. ومن قبل ذلك كان البطل الفاتح المسلم (تامولاند) قد أوحى إلى الكاتب المسرحى الإنجليزى الكبير (مارلو Marlowe) بموضوع إحدى مسرحياته. ثم جاء سليمان العظيم ليكون مادة خصبة لسلسلة من الأعمال المسرحية، نذكر منها:

سليمان للإيطالى (بوناريللى Bonareli)، ثم مسرحية إبراهيم أو الباشا العظيم للكاتبة (مادلين دى سكوديرى).

فى هذه الأعمال وفى غيرها، جاءت صورة سليمان الذى أثر تأثيراً واسعًا فى تاريخ أوروبا، من علاقاته المركبة والمعقدة بأبنائه فى صراعهم فيما بينهم من ناحية وعداوتهم لمحظية والدهم الجميلة روكزيلاند (زمرد) والوزير إبراهيم من ناحية أخرى.

ولم يكن سليمان وحده هو الذى أثر في المسرح الأوروبى بالموضوعات التى تدور حوله، بل كانت هناك شخصيات عثمانية أخرى، نذكر منها: عثمان الثانى أول سلطان يتم أغتياله على أثر ثورة الإنكشارية، هذه الشخصية كانت موضوع مسرحية للكاتب (تريستان ليرميت)، ثم هناك شخصية (دبايزيد) ابن مراد الرابع التى خصها الكاتب المسرحى العظيم (راسين) بإحدى مسرحياته. بعد ذلك جاء دور

الأعمال المسرحية الهزلية، فهذه مسرحية (موليير) الشهيرة البرجوازى النبيل، تتضمن بعض الشخوص من الأتراك الذين يتحدثون لغة عربية تتردد أثناءها بعض الألفاظ التركية، مثل (يوك) والعربية مثل لفظ الجلالة. كما تتضمن المسرحية حفلاً تركيًا مسليًا.

وجاءت هزيمة العثمانيين أمام حصون ڤيينا فى أواخر القرن السابع عشر، لتضع حداً للفزع الذى كان يثيره ذكر الأتراك فى أوروبا. وحلت السخرية من هذا العدو محل الخوف والفزع.

فى القرن التاسع عشر أصبح الخوف من هجوم إسلامى ضد أوروبا مجرد ذكرى، بل ومع التوسع الأوروبى الاستعمارى انقلب الوضع تمامًا.

ومع تغير المشاعر والأدوار، أتيحت الفرصة للأوروبيين لدراسة الواقع الإسلامى وفهم حقيقة البلاد الإسلامية. ومن قبل ذلك، فى القرن الثامن عشر، تمكن كلا من مارسيليى و أوهسون من دراسة الأمبراطورية العثمانية، وقدّما عنها صورة دقيقة مدعمة بالصور. ثم جاءت حملة بونابرت على مصر فكانت فرصة أخرى لدراسات أخرى مستفيضة ومتعمقة.

ولكن إذا كانت العلوم الإسلامية معروفة لدى أوروبا منذ العصور الوسطى. وإذا كان الأوروبيون قد حققوا تقدمًا واضحًا فى الإطلاع على شمائل المسلمين وحياتهم اليومية، فقد ظل الأدب والفن بعيدين عن إدراك الأوروبيين، إلاما ندر من بعض الجوانب الشعبية الشائعة. ظل الأدب مغلقًا على الأوروبيين باستثناء بعض الترجمات التى تركت بصمات واضحة فى الفكر الغربى.

من أبرز هذه الترجمات كتاب ألف ليلة وليلة وبعض القصائد للشاعر الفارسى (حافظ) مع أنها كلها تمت فى القرن الثامن عشر وبصورة ناقصة، بالإضافة إلى ما داخلها من تحوير وتغيير ولقد كانت قصائد (حافظ) المصدر الإسلامى الرئيسى الذى إستلهمه شاعر ألمانيا الأعظم غوته.

كما أن محاولة (غوتة)، فى صدر شبابه أن يكتب مسرحية عن الرسول ﷺ كانت دليلاً على تعاطفه وشعوره النبيل نحو مؤسس الدين الإسلامى. وذلك على النقيض مما فعله كاتب آخر مثل فولتير الذى أسخط عليه نابليون بسبب تناوله غير اللائق لشخصية الرسول ﷺ فى بعض أعماله المسرحية.

وجدير بالذكر أن الترجمة الفرنسية لكتاب ألف ليلة وليلة التى قام بها غالان تركت عظيم الأثر فى خيال الأوروبيين. فقد استوحاها الكاتب الفرنسى كريبيون فى عدد من حكاياته وكذلك وليم بيدفور فى قصته حول أحد الخلفاء العباسيين.

ومن ناحية أخرى، فقد ألهمت طبائع الأتراك وتصرفاتهم خيال بعض كتاب المسرح فى مدينة البندقية وعلى رأسهم الكاتب الشهير غولدونى.

ولعل الموضوع الذى استحوذ على حماس الجماهير الأوروبية أكثر من غيره، كان موضوع وضع المرأة فى البلاد الإسلامية ومكائد الحريم. هذا الموضوع الذى أثار اهتمام الموسيقار المعروف (موزار) فعالجه فى عمل موسيقى بعنوان سلب القصر، كما أن لحنه الشهير بعنوان المارش التركى اعتمد على معرفة (موزار) معرفة تامة بالموسيقى العسكرية التركية.

وكان الصليبيون قد نقلوا من الشرق عادة استخدام آلات النقر الموسيقية فى الموسيقى العسكرية، وبعد فترة من النسيان، عاد هذا الاستعمال إلى أوروبا فى القرن الثامن عشر أكثر قوة وانتشارا.

لقد أمر أغسطس الثانى ملك بولندا باحضار فرقة موسيقية من تركية، الأمر الذى كان بداية لطلب المزيد من الموسيقيين الشرقيين فى أوروبا.

وحينما كان يتعذر إحضار الموسيقيين الأتراك كان يحل محلهم آخرون سود لعزف موسيقاهم التى كانت تعرف بالموسيقى الانكشارية... لقد انتشر استعمال الآلات الموسيقية الشرقية حتى بين السيدات الأوروبيات اللائى كن يهوين العزف على بعض الآلات، وقد قام (هنرى فاريمو) بدراسة أثبت فيها أثر الموسيقى

الإسلامية على الموسيقى الغربية. كما قام بعمل قائمة بأسماء الموسيقيين الغربيين الذى اقتبسوا موضوعاتهم من الشرق وتأثروا بالموسيقى الشرقية. فبالإضافة إلى موزار، الذى سبق ذكره، ضمت هذه القائمة الطويلة عدداً من الموسيقيين نذكر منهم ومن أعمالهم الشهيرة شيروبينى مؤلف (على بابا) وفيليسيان ديفيد واضع (رقصات عربية) وتشايكوفسكى صاحب (كسارة البندق).

أما فى مجال التصوير قد كان من الضرورى أن يكون هناك نوع من الاتصال المباشر بين الفنانيين وبين العالم الإسلامى. ومن ثم استجاب المصور جنتيلى بيلليني لطلب السلطان التركى وأقام فترة طويلة فى استنبول يستلهم مناظرها الخلابة.

وكذلك الحال بالنسبة للفنان فيتور كاراباتشو نظراً للعلاقات التجارية التى كانت تربط بين البندقية والأتراك، وفى القرن الثامن عشر أصبح الفنان جان باتسيت فان مور من رواد بلاط السلطان أحمد الثالث، فى حين عاش الفنان جان ايتيان ليوتار على الطريقة التركية فى مدينة ازمير.

ولعل أشهر المصورين المستشرقين بالمعنى الحرفى للفظ هو الفنان الهولندى الشهير رامبرانت الذى اهتم اهتمامًا كبيراً بفن التصوير الإسلامى بحيث قام بتقليد بعض المنمنات المنغولية ونلقلها نقلاً دقيقًا.

أما فى فرنسا فقد بدأ الاستشراق فى الفن بظهور لوحتين شهيرتين الأولى معركة ابى قير (١٨٠٦م) للفنان انطون جان غرو والثانية ثورة القاهرة.

ففى هاتين اللوحتين وبالذات الثانية، نجد جميع العناصر التى تميز هذا النوع من التصوير: الملابس الفاخرة، والأسلحة الشرقية، والحركات العنيفة، والألوان المتناقضة. ولعل ذلك ما أدى إلى ظهور أعمال (دى لاكروا) ولوحاته عن الشرق، (شرق الأحلام) على وجه الخصوص لوحته المعروفة بعنوان موت ساردانابال (١٨٢٧م).

وفى القرن التاسع عشر، بدأت مرحلة متطورة من الاتصال بالشرق الإسلامى، حينما دأب الكتاب والفنانون الأوروبيون على الارتحال إلى الشرق بحيث أصبح هناك ما يعرف بأدب (الرحلات) إلى الشرق وقد أسفر هذا الاتصال المباشر عن عدد من المفاجآت . من ذلك دى لاكروا أثناء رحلة إلى الشمال الافريقى (١٨٣٢م) اكتشف أن نظام الحريم فى الإسلام جميل كنظيره (نظام الخدر) عند الإغريق القدماء. كذلك رأى الفنان فى هذا النظام امتداداً لنظام الحمامات عند قدماء الإغريق.

ومن ناحية أخرى، أصبح الشرق يجذب العديد من الكتاب الغربيين الذين تطول القائمة لو حاولنا حصرهم. وقد تفاوت سحر الشرق عند الأوروبيين، فهو مجرد نزوه وتخيل عند البعض من أمثال. جيراردى نيرفال و كوليريدج و سائر الرومانسيين، ولكنه دراسة واحتكاك مباشر كما هى الحال بالنسبة للترجمات والتقارير التى قام بكتابتها (بورتون) ولا يفوتنا الإشارة إلى الكاتب الفرنسى الشهير (بييولوتى) الذى كان يعشق تركيا ويتعاطف مع الإسلام وحققت مؤلفاته عن الشرق والإسلام نجاحًا كبيراً بين جماهير القراء.

الكتاب يفيد إضافة أساسية فى المكتبة العربية، فقد تميز بالدراسة التاريخية المتعمقة فى نواحى وموضوعات غير تقليدية تتصل بالفن والعمارة والرسم والتصوير والملابس وتأثيراتها الإسلامية على الحضارة الأوروبية والعالم المسيحى المتعصب. إن تجمع هذا العدد من المستشرقين الأوروبيين لدليل على عظمة الدور الإسلامى فى تاريخ البشرية.